مركزية الترجمة في تاريخ المسلمين

أ.د. محمد بنعياد

الكلية المتعددة التخصصات بالناظور/ جامعة محمد الأول/ وجدة/ المغرب

The Centralism of Translation in the Islamic History

Prof. Dr. Muhammad Bin Ayad

The Multi Specialization College/ University of Muhammad I/ Al-Nadhoor/ Wajdah/ Morocco

Abstract

The story of Muslims today is the story of regaining the leadership and fighting the dependency to imperialism. The question is "is there any hope to regain the leadership position for this nation?"

إن قصة المسلمين اليوم، هي قصة العودة لامتلاك سبل الفهم والوضوح، ومحاربة العماء والتبعية لقوى الاستكبار التي أنهكتهم بأساليب متعددة وعلى كافة المستويات. فهل من سبيل لاحتلال موقع الريادة بين الأمم، واسترجاع الأمن والاستقرار والمبادرة الحرة القائمة على العزة والتخلص من موقع الذيل في الترتيب الأممي، والخروج من فلك المركزية الغربية بنوعيها الأوربية والأمريكية؟

وفي هذا السياق نتوخى بهذه الورقة أن ندلي بكلمة الفصل في علاقتنا بالغرب، فاخترنا تتبع مسارات المركزية وتحولاتها في علاقتها بالمسلمين، إيمانا منا بجسامة الموضوع وأهميته البالغة.

هاته المسارات، وهاته التحولات تساعد على فهم تاريخ المسلمين حينما كانوا في موقع القوة والغلبة، وكيف انتقلوا إلى اتباع الغالب، فأصبحوا مرتبين في الصف الخلفي ضمن الترتيب على سطح الأرض.

فكيف بدأت المركزية عند المسلمين؟ وكيف أصبحت الترجمة مركزية في تاريخهم؟ وكيف فقدوا مركزيتهم؟

المركزية القبلية لدى العرب:

انبثق الإسلام في صحراء قبائل، لم تكن على هامش التاريخ وبمعزل عنه، كما يسود الاعتقاد في كثير من الدراسات. فالعالم الذي أحاط بالعرب زمن نزول الوحي (القرآن) هو البحر المتوسط الشرقي، والمحيط الأوسع الدائر به، كان مجال تاريخ حافل في هذه الفترة، ولهذا كان للعرب حضورهم التاريخي إلى جانب الفرس والمصريين والعبرانيين والرومان زمان انتقال مركزهم إلى الشرق. وستفقد القبيلة مركزيتها ويفقد شيخ القبيلة منصبه مع نزول الوحي.

لقد بعث محمد ﷺ، في وسط قبلي، وأدت دعوته إلى الانتقال من الطور القبلي المتناحر إلى الألفة والتمازج. شكلت هذه البعثة نقلة وجودية فاصلة بين ما ساد على مر تاريخ البشرية من دعوات الأنبياء والرسل، التي كانت تنتهي وتختم بالجحود مع كل طور آبائي بالانحراف والتحريف لما أنزل الله، فتكتب الكتب بأيدي البشر ويقولون هذا من عند الله.

إنها بعثه فاصلة أيضا تعلو على ما سيأتي من عمر البشرية، بحيث كتاب الله (القرآن) هذه المرة محفوظ إلى أن تقوم الساعة وهو وعد إلهي لا يقبل الجدل. فالقرآن هدي وخبر برسم محفوظ بينما الرسم الوضعي رسم مختلط يفتقد إلى وضوح الرؤية ويغلب عليه الإبهام. وبالعودة إلى القبلية نلاحظ أن قبيلة قريش تمثل القبيلة المركزية والمركزية الأولى في تاريخ العرب، هاته القبيلة خصها القرآن بسورة من سوره وهو أمر ليس عبثا وإنما لأهمية قبيلة قريش من حيث وضعها المتميز بين القبائل ولسانها الذي جاء حاملا للوحي ألا وهو اللسان العربي المبين. يقول سبحانه وتعالى: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش إلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾. وتبين السورة رحلة الشتاء والصيف مما يشي بأهمية مكانة قريش في التجارة في المنطقة، والحظوة التي تمتعت بها.

وفي أحضان هاته القبيلة (قريش) بعث النبي محمد ﷺ بعث بـ (اقرأ) التي لا تقتصر على سورة العلق، بل (اقرأ) القرآن في كليته، فكانت تجاوزا للقراءة التقليدية الجاهزة للمجلدات والكتب التي سطرها الأولون.(1)

«جاء الوحي بـ "اقرأ" في سياق خرجت فيه عن كل التقسيمات الاصطلاحية التقليدية – ويقع في منطقة عميقة جدا في البناء الإسلامي: في الأساس، في الأركان، وفي القاعدة».(2)

وبنزول الوحي لم يعد «التدين في حق المسلم مجرد سلوك تعبدي يلجأ إليه لكي تسكن نفسه، ويملأ به فراغ قلبه، وإنما هو طريقة تحقيق ذاته نفسها في الوجود، بحيث يوجد المسلم في الدين وجوده في العالم؛ بل لا عالم للمسلم غير دينه، وإذا صح أن الدين هو عالم وجود المسلم، صح معه أيضا أن سلوكه العقلي إنما هو جزء من هذا العالم الديني».(3)

ومما سبق يتضح أن المسلم داخل عالمه الديني، في علاقة مع عالمين، عالم الغيب بما أخبر عنه الله، وعالم الشهادة، فكانت "اقرأ" تسديدا للمسلم وتحصينا له بما يتجاوز القدرات العقلية والخيالية للإنسان. إن "اقرأ" مفتاح باب التحرر، مفتاح يحرر القراءة من أسوارها الأبجدية وحدودها اللغوية ليطلقها في عالم المعاني شديدة الثراء والخصوبة ... ومن المفاهيم الجامدة للتلقين الغبي إلى قراءة ما هو غير مكتوب في بطون الكتب، إنه دعوة لقراءة كتاب الكون المفتوح»(4).

إن "اقرأ" كانت أول أمر وأول لفظ تتابعت بعده الألفاظ والآيات، لتشكل بنية كلية كانت غائبة(5) عن البشرية، شكلت قلادة للمؤمنين ليتقلدوا بها أعلى الدرجات بالإحسان والقرب من الله وعمارة الإنسان والسلطان وإصلاح ما فسد في الأرض وما سيفسد.

ولكي لا نطيل نعود إلى المركزية، بحيث انتقلت المركزية من قبيلة قريش، لتصبح العقيدة هي المركزية الجديدة، مركزية عقيدة "اقرأ" مثلت مكة موضعا جغرافيا أوليا لانطلاق عقيدة "اقرأ" شكل فيها الخطاب القرآني في هذه المرحلة عبر ثلاث عشرة سنة من التكوين والتنشئة، إعدادا للدخول في التحدي مع معطيات الواقع الجاهلي وقوانينه المحددة للثروة والاجتماع، وكان هذا التحدي منطلقا من عقيدة تضم منظومة تصورات دخلت في الطور العملي، استكملت إنجازاتها مع الطور المدني بتلاحم المهاجرين والأنصار، وبالانتصارات المتتالية للمسلمين على المشركين وبناة عرش الشيطان من اليهود الذين يحاربون عرش الرحمن. إن "اقرأ" ستكون النواة أو الرأس الذي أيقظ العقل لدى العرب لتنشط حركة العلوم والتأليف.

أصبح القرآن الوثيقة الأولى المؤسسة ومصدر الأحكام والعلوم لدى المسلمين، وثيقة رسالية سامية جديدة تؤمن بالعلم. وبناء على هاته الرسالة كانت الحركة الدينية أوسع الحركات إذ ضمت في عطفيها علوم القرءان والحديث والفقه من معاملات وعبادات وأحكام.(6)

وقد كان على رأس هذه الحركة في أول أمرها عدد من علماء الصحابة الذين كانوا على مرتبة سامية من العلم والفطنة، كان أشهرهم عمر وعلي وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت وأم المؤمنين السيدة عائشة وغيرهم.

انطلاقا مما سبق يتضح أن العرب انتقلوا من مركزية قبلية (قريش) إلى مركزية عقائدية إسلامية، قامت وانتشرت بالدعوة على قاعدة "اقرأ"، لكن ستحصل تحولات في المجال العلمي، وذلك بدخول علوم دخيلة، كان ذلك مع شساعة المجال الجغرافي لنفوذ المسلمين، واتساع العمران، مع اعتناق أقوام من العجم الإسلام. فظهر معامل جديد في الحركة العلمية لدى المسلمين، هو عامل الترجمة، التي كانت بدايتها الأولى مع الأمويين وعرفت أوجها مع العصر العباسي، وسيدشن انطلاقتها الأولى المترجمون السريان، لكن الترجمة في هذا العصر لم تكن مركزية، ولكنها مثلث الاختراق الأول، كما سنوضح ذلك لاحقا، بالرغم من الدراسات التي تقول بأن الترجمة مع بيت الحكمة لم تكن اتباعية كما هو الحال مع الفترة المعاصرة.

(1) أحمد خيري العمري: البوصلة القرآنية إبحار مختلف بحثا عن خريطة للنهضة، دار الفكر دمشق، الطبعة الثالثة، 2011، ص 29.
(2) المرجع نفسه، ص 23.
(3) طه عبدالرحمن: من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، الطبعة الأولى، 2016، ص 26.
(4) أحمد خيري العمري: البوصلة القرآنية، مرجع سابق، ص 24.
(5) هناك كتاب لعالم السيميائيات الإيطالي امبرتو ايكو بعنوان "البنية المغيبة" وهو غير مترجم وعنوانه الأصلي بالفرنسية "la structure absenté"
(6) مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت 1973، ص 16.

وللتذكير أو التنبيه ترجع دوافع اهتمامنا بتاريخ الترجمة والنبش فيه، والنظر في تطور نشاطها على سبيل المثال لا الحصر «فقر المكتبة العربية، إن لم نقل خلوها من أي مؤلف خاص يعنى بهذا الجانب سواء فيما يتعلق بتاريخ الترجمة العربية أو الغربية، ما عدا ما جاء عرضا في ثنايا الكتب التاريخية العامة التي اهتمت بموضوعات أخرى غير الترجمة»[1] دون أن تستثنى بعض المقالات وبخاصة في مجلة الوحدة العدد المزدوج 61/62–1989م.

الذي خصص للترجمة وتشكيليها للفكر العربي المعاصر، وهي في غالب الأحيان يحكمها خط إيديولوجي لا علمي.

وتفصيلا لما سيأتي في هذا المقال، سنعمد إلى اطلاع القارئ على ما دار في دهاليز نشاط الترجمة وعلى الأخص ابتداء من العصر العباسي (بيت الحكمة) وإن سبقته محاولات في العهد الأموي، إلى مدرسة طليطلة التي منها انتقلت علوم المسلمين إلى أوربا لتعود بلباس أعجمي عبر القاهرة وبيروت مباشرة بعد حملة نابليون بونابرت على مصر 1798م، لينضم فيما بعد المغرب العربي لحركة الترجمة التي انطلقت مع السبعينيات. وفي هذا السياق نرى أن تتبع تاريخ الترجمة ونتائجه من الوسائل التي تساعدنا على فهم حاضرنا الذي رسمته آثار الماضي والتنبيه على الأخطاء والتجاوزات التي نتجت عن تعاملنا مع الغرب ومحاولة الإمساك بالخيط الرفيع والناظم لفكرنا المعاصر الذي أصبح بضاعة مستوردة.

حركة الترجمة السريانية:

السريانية هي أهم اللهجات الآرامية التي ظهرت بمدينة الرها العراقية، وكانت تسمى باللهجة العراقية، ثم بعد امتدادها إلى سورية صارت تسمى بالسريانية. ويرجع نشاط الترجمة السريانية إلى بداية القرن الخامس الميلادي، ليمتد إلى ما بعد ظهور الإسلام، وكان من بين العوامل التي ساهمت في هذا التطور «انحسار دور اللغة الإغريقية في الشرق خاصة، وتشجيع ملوك الفرس والروم الذين تفيدنا الوثائق التاريخية أنهم كانوا يستعملون المترجمين السريان لعقد الاتفاقات فيما بينهم وهو النهج الذي سار عليه ملوك المسلمين، حيث جلب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مثلا طبيبه الخاص جورجيس بن يختيشوع النسطوري[2] من هذا المركز سنة 765م.... وانتشرت المدارس العلمية السريانية بعدة مناطق أبرزها مدرسة "الرها" العراقية التي وضع بها العديد من الترجمات السريانية للكتب المقدسة ومدارس "نصيبين" و"الاسكندرية" و"حران" (بلد الصابئة) و"الحيرة" التي ينتسب إليها حنين بن إسحاق العبادي المترجم العربي والسرياني الشهير».[3]

وكانت دائما تسبق الترجمة العربية لكتاب يوناني ترجمة سريانية، بل النص السرياني حل محل الأصل في أكثر الحالات وهذا ما جسدته مدرسة بغداد العباسية وشيخ مترجميها حنين بن إسحاق.[4]

فماذا عن مدرسة بغداد؟

عبور نصوص الغرب نحو الشرق عبر بغداد:

ليس الناس وحدهم يهاجرون ويرتحلون، بل أيضا النصوص والكتب ترتحل إما بلسانها الأصلي، أوعن طريق الترجمة، إما لحاجة ماسة وضرورية، وإما لضعف في الطالب لهذه النصوص والكتب ليقتات عليها لأنه يتبع الغالب، ولا يكاد يخرج الأمر عن هذين الشرطين. يقر "خوان فرنيه" أن حركة الترجمة العربية لم تتم إلا مع نهاية القرن السابع الميلادي، بعد انتهاء الفتوحات العربية، عندما استبدلت اللغة الإغريقية باللغة العربية في الوثائق الرسمية.[5]

---

(1) أحمد جوهري: ما بعد جريمة قابيل عرض نظري في تاريخ الترجمة والمترجمين، الجزء الأول مكتبة الطالب، وجدة، 2012، ص 5.
(2) النسطوري: نسبة إلى نسطوريوس الأنطاكي الذي تحول إلى أسقف بالقسطنطينية وانعقد بشأنه ما يعرف بمجمع أفسوس سنة 431م، ليتم طرده من الكنيسة هو وأنصاره، حيث شكل النسطوريون فكرا دينيا شرقيا خاصا بهم.
(3) أحمد جوهر: ما بعد جريمة قابيل، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 104.
(4) المرجع نفسه، ص 112-113.
(5)Vernet Juan: Ce que la culture doit aux arabes d'Espagne, traduit par Gabriel Gros, Paris, Sindibad, 1985, p 19.

أما مريم سلامة قار فترجع هذا الظهور إلى ما قبل هذا التاريخ عندما تمت ترجمة النصوص الإدارية الفارسية بالعراق إلى العربية، ثم بعد ذلك سورية ومصر حيث كانت النصوص الرسمية تكتب بالإغريقية.(1)

وإذا كانت شهرة الترجمة في العصر العباسي قد بلغت الآفاق في الشهرة، فإنه لا يمكن القفز على المرحلة الأموية، لأن كتب السيرة تروي «أن ورقة بن نوفل كان مطلعا على النصرانية ونصوصها، كما أن ابن هشام يروي عن ابن إسحاق نصا عربيا قديما مترجما عن إنجيل يوحنا (15: 26–27 وكذلك 16:1) يؤول بالبشارة بالنبي ﷺ».(2)

وتأسيسا على ما سبق. بدأت الترجمة بمحاولات فردية قبل أن تتبناها الدولة. ومما جاء عند ابن النديم في الفهرست أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85هـ) هو أول من دشن الترجمة العلمية عند المسلمين: «كان خالد بن يزيد يعتبر حكيم آل مروان... فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن ينقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي... وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة».(3)

وكانت أول ترجمة للقرآن إلى الفارسية على يد القصاص موسى بن يسار الأسواري، الذي ذكره الجاحظ بما يلي: «كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأي لسان هو أبين. واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن يسار الأسواري»(4).

وبحلول العصر العباسي وزيادة الحاجات الإدارية والمالية والعلوم والصنائع الأجنبية، تسرعت وثيرة حركة الترجمة، وأصبحت تشمل مجالات معرفية متعددة، كالمنطق والفلسفة، وازدادت بتدفق مزيد من الأقوام الذين اعتنقوا الإسلام ونقلوا إرثهم العلمي من اللسان الأعجمي إلى اللسان العربي. وينضم إلى ما سبق انتشار الجدل الكلامي وظهور الفرق العقائدية بين المسلمين واشتداد الصراع، فزاد شغفهم بمنطق اليونان وفلسفتهم، بما ترجمت كتب الزرادشتية والزندقة.

وأصبحت الترجمة في العصر العباسي مهنة تخول للمترجم وضعا اجتماعيا متميزا، بل أصبحت وظيفة رسمية توجت بمدرسة بغداد للترجمة، فيما يعرف ببيت الحكمة في عهد الخليفة العباسي المأمون (170هـ/ 218هـ).

وإذا كانت الترجمة قد شملت منطق اليونان وفلسفتهم، والطب، فإنها لم تبق مقتصرة على الجبهة اليونانية، بل مدت الجسور مع آسيا فكان مما ترجم «علم الفلك وحساب الرصد، وبعض كتب الطب والأخلاق والحكم عند الهند، وكان أول اتصال رسمي بالهند في عهد أبي جعفر المنصور سنة 154هـ عندما زاره وفد هندي وضمنهم عالم فلك يحمل كتابا في الفلك باللغة السنسكريتية(5) عنوانه: "أبرهام سيهطسد هانتا" "BRAHMA Sphutasid Dhanta" ومعناه التعاليم المأخوذة عن براهما، وقد كلف أبو جعفر المنصور هذا العالم باختصار الكتاب قبل أن يترجم المختصر إبراهيم بن محمد الفزاري وقد عرف الكتاب عند العرب باسم "السند هند" فظل عمدتهم في الفلك إلى أن ترجموا بطليموس اليوناني زمن المأمون».(6)

وإذا كنا قد تحدثنا باقتضاب عن مسار المركزية في تاريخ المسلمين، والتي بدأت بمركزية قبلية –قريش– ثم مركزية العقيدة بعد نزول الوحي على محمد ﷺ، والذي كان محركا لحركة التدوين وانتشار وتنوع العلوم، فإنه سرعان ما دخلت بلاد المسلمين علوما دخيلة

---

(1) M. Salama –Carr La traduction à l'époque Abbasside, paris, Dédier, 1990, p 19.

(2) أحمد جوهري: ما بعد جريمة قابيل... الجزء الأول، مرجع سابق ص ص 113-114.

(3) محمد بن إسحاق النديم: الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1398هـ/1978م، ص 338.

(4) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، الجزء الأول، الطبعة الأولى، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1367هـ/1948م، ص 123.

(5) السنسكريتية: لغة طقوسية للهندوسية والبوذية مشابهة للغة اليونانية واللاتنية في أوربا القرون الوسطى، ولا يسمح إلا للكهنة بقراءة النصوص السنسكريتية في المعابد (الفيدا) أقدم الكتب المقدسة الهندوسية، وهناك السنكريتية التي هي الدماغ اليهودي وهي خليط من العقائد المتضاربة والمتناقضة تم الجمع بينها، مما يجعل البحث مشروعا في العلاقة بينهما، خاصة وأن ما يفرق بينها تسمية حرف واحد هو "س".

(6) إسماعيل مظهر: تاريخ الفكر العربي، ص 43 نقلا علن احمد جوهري: ما بعد جريمة قابيل، الجزء الأول، مرجع سابق، ص:120.

عن طريق الترجمة، إلا أن الترجمة في العصرين الأموي والعباسي لم تكن مركزية كما هو حالنا اليوم، ولكنها مثلت الاختراق الأول أو الغزو الأول. وهذه المرحلة يسميها طه عبدالرحمن "النقل الابتدائي" ويقصد به الترجمة الأولى من الترجمات العربية التي وضعت لكل نص فلسفي يوناني، لأن الفكر الذي بين يدي المتلقي العربي نسميه "فلسفة" فكر نشأ وتطور ومازال يتطور بواسطة أعمال الترجمة.[1]

ومرد هذا الغزو أن «ما لحق الترجمات الابتدائية من وجوه التعثر المختلفة، إن غموضا في المعنى، أو عسرا في اللفظ أو اضطرابا في التركيب أو تهلهلا في الأسلوب.. وبما أن تبعية هذا الفكر الفلسفي للنقول الابتدائية، جلبت له من الضرر على قدر هذه الفروق، فقد لقي هذا الفكر أقصى المعارضة وأقوى المخاصمة من مختلف فئات أهل الأصول، محدثين، وفقهاء، صوفية ونظارا، لغويين وأدباء»[2].

وهذه الأضرار كانت نتيجة الاعتماد على المترجمين السريان الذين لم تكن العقيدة الإسلامية هي الضابط في ترجماتهم.

جمعت المدارس السريانية «بين تدريس السريانية، وتدريس اللغة اليونانية، بحيث وجد النقلة السريان من كان يتكلم الألسن الثلاثة: السرياني، واليوناني والعربي، بل وجد منهم من كان يترجم من اليونانية إلى العربية كما يترجم من اليونانية إلى السريانية».[3]

ومن بين آثار الغزو والإخلال بالمجال التداولي العربي الإسلامي[4] أن تم تبني ثنائية الخبر والإنشاء وهي ثنائية يونانية، فماذا لوعدنا لعقيدة "اقرأ باسم ربك الذي خلق" في كليتها، والكل هنا نقصد به القرآن كليا لا جزئيا، بعودتنا سنجد النبأ والخبر، فالنبأ خبر عظيم، وأمر جلل، كما نجد الخبر إلا أنه أقل ثقلا من النبأ، بل في القرآن سورة تحمل اسم النبأ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم عم يتساءلون عن النبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون**﴾ الآية 1-6 النبأ. ثم هناك سورة الحجرات التي جاء فيها استنادا إلى الآية السادسة ﴿**يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾ الآية: 6/ الحجرات. ونضيف ما جاء في سورة النمل قوله تعالى: ﴿**فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين**﴾ الآية 22، النمل.

يتضح مما سبق أن هناك الخبر والنبأ والإنشاء، فالنبأ الإلهي والخبر الإلهي في القرآن لا يقبلان الجدال في نقضهما، فلا مجال للمقارنة بين ما هو من مصدر إلهي ومصدر بشرى الذي لا يخلو من وضع وتحريف وكذب. كما يمكن أن نضيف الفعل والفاعل اللذين يخصان البشر والفعل والفعال المرتبط بذات الله، فالله فعال كما سمى نفسه، وأعلى مرتبة من الفاعل المحدود بالقدرة والذي هو رهين مشيئة الله/الفعال.

كانت هذه إطلالة على ما لحق بنا من آثار اليونان، فساد "أرسطو" معلما أولا في هذه المرحلة –العباسية– ليتخذ المحدثون "ديكارت" معلما أولا، كما لا ينبغي أن تفوتنا ملاحظة تحتاج إلى تمحيص، وهي أن الترجمة وصلت ذروة نشاطها في العصر العباسي لكنها توقفت، وحسب اطلاعي المتواضع لم أستطع الوقوف عند أسباب واضحة لهذا التوقف. ويبقى السؤال ما هو المسار التاريخي لعلوم المسلمين بعد هذه الفترة؟

إن اتساع نفوذ المسلمين من المشرق إلى المغرب والأندلس، سهل عملية انتقال الكتب والعلوم من المشرق إلى المغرب والأندلس، فضلا عما تم إنتاجه في الأندلس، التي استأنفت حركة الترجمة من جديد، فتحولت عاصمة الترجمة من بغداد إلى طليطلة.

مدرسة طليطلة أو مراكز عبور علوم المسلمين إلى الغرب:

إن الحديث عن الترجمة في الجهة الغربية من تاريخ المسلمين، من شأنه أن يميط اللثام، ويكشف الخفي في علاقتنا مع أوربا، ذلك أن الترجمة في الطور المشرقي (بغداد) يختلف عنه في الطور المغربي، وفي هذا الطور الترجمة في اتجاه عكسي مثلث مركز نقل حقيقي في عملية البناء، وقوة قادرة على إنجاز التطلعات وإحداث التحولات النوعية، بل كانت السبيل إلى القوة الذاتية عبر مخاض

(1) طه عبدالرحمن: فقه الفلسفة. 1-الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2000، ص 83.
(2) المرجع نفسه، ص 85.
(3) طه عبدالرحمن: فقه الفلسفة -1-الفلسفة والترجمة، مرجع سابق، ص 93.
(4) ينبني المجال التداولي عند طه عبدالرحمن على ثلاث قواعد: العقيدة، المعرفة واللغة.

مرير أنجب أوربا القوية. هاته القوة، كان أساس بدايتها الجنينية مع ترجمة أول كلمة من العربية سواء إلى اللاتنية أم إلى القشتالية على أرض الأندلس.

إن التركيز على مدرسة طليطلة لا يعني إقصاء أدوار مراكز أخرى، انتقلت منها علوم المسلمين إلى الغرب: «فحركة المثاقفة الغربية انطلقت من طليطلة وتتابعت في نابولي بجنوب إيطاليا بفضل Frédéric II فريديرك الثاني الذي توج بروما سنة 1280».[(1)]

وفي هذا السياق يضيف آلان دوليبيرا Alain De libera «في القرن الثاني عشر أصبحت طليطلة في العالم النصراني ما كانت عليه بغداد في عالم المسلمين، فالتاريخ يعيد نفسه».[(2)]

وكانت الكنيسة هي المحرك الأول لعملية الترجمة التي أصبحت ضرورية لمعرفة العلوم، وثانيا للنهل من علوم المسلمين، أي بتعبير آخر أصبحت حركة الترجمة نشاطا موازيا للحروب الصليبية، ففي رسالة وجهها المترجم الكاثوليكي الإنجليزي القادم إلى طليطلة دانييل مورلي Daniel Morley إلى أسقف نورويتس يقول فيها: «لننزع إذن عن هؤلاء الفلاسفة الكفار حكمتهم وفصاحتهم كما أمرنا الله وبمعونته، لنجردهم مما لديهم حتى نغتني به نحن في نور الإيمان».[(3)]

واستنادا إلى ما سبق يتضح أن هناك عدة مراكز للترجمة: طليطلة، نابولي، وصقلية جنوب إيطاليا التي شكلت قطب جذب توافد عليه «عشاق المخطوطات الإغريقية والعربية من النصارى الذين وصلوا إلى باليرمو حيث كان الملوك النورمنديون لصقلية ثم فريدريك الثاني يحيون أول بلاط إيطالي نهضوي ثلاثي اللغة (إغريقية، عربية، لاتينية) وإلى طليطلة التي استعادها الإسبان 1087م، ونشط فيها المترجمون النصارى تحت حماية كبير الأساقفة ريموندو 1125م –1151م»[(4)]. ويبقى السؤال الذي يحتاج إلى توضيح، هو لماذا اشتهرت مدرسة طليطلة وذاع صيتها أكبر من المراكز الأخرى؟ وهل وجدت فعلا مدرسة للترجمة شبيهة بمدرسة بغداد في طليطلة؟ وما المقصود بمدرسة طليطلة؟

تجيب Clara foz كلارا فوز «تعني مدرسة طليطلة أعمال الترجمة من العربية إلى اللاتنية والرومية القشتالية خلال القرنين 12 و13م المنجزة بطليطلة وبرشلونة وطارازونة وغيرها. وقد ولدت هذه الأعمال بين 1126م و1130م وانتهت في 1287م».[(5)]

ويؤكد ريشارد لوماي Richard le may وجود نشاط هام لترجمة التراث العربي في مناطق إسبانية قبل فتح طليطلة بخمسين سنة حيث يعتبر منطقة إيبر Ebre وNavarre نافار (بمبلون Pampelune) مركز للترجمة سابقا لمركز طليطلة[(6)].وبهذا تكون طليطلة عنوانا كبيرا لمركز طليطلة ومراكز أخرى. وكان من نتائج وآثار الترجمة إشراق العقل في أروبا الذي تؤكده حركة التاريخ التي بلغت مداها وبرزت معالمها، لقد وعى هذا التحول أديلارد الباثي (مات 1142م)، حيث يعترف بأن «ما تعلمه من أساتذته العرب تحت قيادة العقل هو عكس أغلال Copistruns السلطة التي أبقت أعناق اللاتينيين مغلولة كالأنعام تقاد في كل اتجاه وقامت على يد أديلارد الباثي صورة "العرب" على اعتبار أنهم "أهل العقل" وهيمنت هذه الصورة طوال قرنين أو يزيد على الفكر النصراني»[(7)].

إن حركة الترجمة وانتقال النصوص والدراسات إلى غرب القرون الوسطى هي في الواقع بداية حركة الاستشراق التي عرفت فقط بحركة الترجمة أو طلب العلم بالخصوص في إقليم الأندلس، فلماذا هذا الاهتمام بالأندلس، ذات الحضور الإسلامي؟

---

(1) Alain De Libera, Penser au moyen âge, éd, Seuil, Pris, Mai 1991, p 113.
(2) Ibid., p 111.
(3) دانييل: مورلي: ذكره أحمد جوهري، ما بعد جريمة قابيل، عرض نظري في تاريخ الترجمة والمترجمين، الجزء الأول، (مرجع سابق)، ص 204.
(4) J le Goff: les intellectuels au Moyen âge, paris, Seuil, p 68.
(5) CLara Foz: Traduction –Appropriation "Le cas des traducteurs tolédans des 12 et 13 Siècles". TTR (traduction, terminologie, Rédaction), Vol 1, n°2, 1988, p 58-64.
(6) R. Lemay: "Dans L'Espagne de XII Siècle, Les traductions de L'arabe du Latin, Annales 1963, volume 18, n°4, pp 639-665.
(7) Alain de Libera, La philosophie médiévale, quadrige, éd, PUF, Avril 2004, p 346.

هنا يذهب إدوارد سعيد إلى القول: «إن اهتمام الأوربي بالإسلام لم يكن مستمدا من الفضول، بل من الفزع إزاء منافس للمسيحية، توحيدي ومتقدم ثقافيا وعسكريا. ولقد أظهر مؤرخون عديدون أن أقدم الباحثين الأوربيين في شؤون الإسلام من أهل الجدل في القرون الوسطى».[1]

ومن جهة نظر علم النفس إن الخائف يكون تواقا لمعرفة مكامن القوة والضعف عند الخصم، وعلى العكس الخصم يشعر بالقوة فتتضخم عنده الأنا ويصبح التمركز حول الذات مما يؤدي إلى فقدان الصواب لاتباع الطريق الصحيح، وهو المآل الذي انتهى إليه المسلمون بالأندلس، حيث غابت المقاصد الروحية فدخلوا في الضعف والتشرذم، وكان تراجعا بلا عودة وخروجا مذلولا من إقليم الأندلس مع حركة الاسترداد النصرانية التي توجت بسقوط آخر معاقلهم غرناطة 1492م. إن تراجع وهزيمة المسلمين فتحت الأبواب أمام الاستشراق ليقود حركة التغريب والتحريف والتشويه للعقل التاريخي العربي، أي باختصار قام الاستشراق «بتغريب العلوم العربية، وذلك إما بنسبتها للفكر اليوناني أو بنسبتها إلى مترجميها كما فعل قسطنطين الإفريقي الذي كان ينسب ما يترجمه إلى تأليفه الخاص أو كما فعل ألبرت الكبير الذي ينسب مقاصد الفلاسفة للغزالي ليوحنا الإسباني».[2]

وإذا كانت الأندلس هي المهد الجغرافي بالإضافة إلى مراكز أخرى بجنوب إيطاليا فإن المترجمين كانوا لسان أوربا التي ستولد من جديد، مترجمون ينقسمون إلى يهود وإلى نصارى.

المترجمون النصارى بطليطلة:

اشتهرت الأسماء الآتية: جيراردو كريموني ودومينجو جونثاليت، مايكل سكوت، هرمن الألماني جيوم اللوني، وبيير جاليجو.

المترجمون اليهود:

يوحنا بن داود الإسباني وعائلة آل تيبون، ويذهب آلان دوليرا إلى القول بأن «المشروع الثقافي الطليطلي اعتمد على علم اليهود وثنائيتهم اللغوية، فأتاح في غضون بضعة عقود نقل جزء ملحوظ من المدونات الفلسفية اليونانية العربية إلى اللاتنية»[3]. وتوزع نشاط اليهود في إطار تخصصات الميمونية (نسبة إلى ابن ميمون) وهو تخصص يهود البروفانس، أما الإسبان بالمولد فكان تخصصهم الحوار مع القبالة والإيطاليون كان تخصصهم الحوار مع الإسكولائيين.[4]

إن دور اليهود مركزي في عملية الترجمة التي ينبغي أن نضيف إليها التحريف والانتحال لأسماء علماء وفلاسفة مسلمين كابن رشد الذي سمي Averroès وابن سنا Avicenne وهما اسمان بهاته الصيغة وبمخارجها الحرفية لا تشي بأنها عربية، بحيث انطلاقا من Averroès ظهر Averroïsme الذي ترجم إلى الرشدية وظهرت الرشدية اللاتينية والرشدية المدرسية في الدراسات العربية، وهي مجرد مقولات من خيال أرنست رينان في مؤلفه ابن رشد والرشدية الصادر سنة 1852م[5]، وهي المقولات التي نعتبرها مقولات أسطورية بمعنى الوهم.

والخلاصة ان ترجمة التراث العربي وحركتها وتعددها يصطدم بصعوبات قائمة على تعدد المترجمين والأسماء المتعددة للمترجم الواحد، والتحريفات والحذف والانتحال، وعلى سبيل المثال أن اليهودي يوحنا بن داود الإسباني يرى بعض الباحثين أنه هو الفيلسوف أبراهام بن داود هاليفي (1110-1180) مؤلف كتاب "الدين الأسمى"، كان مصنفا ومؤلفا ومترجما اشتغل مع دومنجو جونثاليث ابتداء من عام 1130م... وإذا كانت الكثرة الخرافية للأسماء التي سمي بها: -Johannes Avendauth –Totetaunus Avendeuth Loyunes Hisplensi, Ihonnes Avendeut hispanus تدفع إلى التفكير في أكثر من شخص فيبقى الذي يسميه المؤرخون

---

(1) إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير: صبحي حديدي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، دار الفارس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1996، ص 119.
(2) محمد ياسين عريبي: الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، 1، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، الطبعة الأولى، 1991، ص 138.
(3) Alain De Libera, La philosophie Médiévale, op.cit., p 347.
(4) Ibid, p 225.
(5) Claude Gouvard, Alain De Libera, Dictionnaire du moyen âge, quadrige, PUF, 2ème tirage, 2006.

المحدثون خوان بن داود "Juan ben DAVID" مع موسى سيفاردي Moshe Sefardi وربي بارحيا البرشلوني Rabbi Barhiyya واحدا من اليهود الإسبان الذين نقلوا إلى النصارى الثقافة الناطقة بالعربية في اللحظة التي كانت فيها ممالك الطوائف تنهار.[1]

لقد أدى انتقال علوم المسلمين إلى أوربا سواء تعلق الأمر بما ترجم منها أم بما وصل بالأصل العربي (اللساني)، إلى نتائج لم تكن في حسبان الكنيسة ولا في تقديرات الفلاسفة الذين بدأوا يشكلون معارضة لخطاب سلطة الكنيسة.

وإذا كانت الكنيسة هي السباقة إلى تشجيع الطلاب للتلقي عن المسلمين في الأندلس، بالإضافة إلى الذين لم ترسلهم الكنيسة، كان الهدف الرئيس هو إعداد العدة العلمية لمحاربة المسلمين، إلا أن السحر انقلب على الساحر. ظهر تياران متصارعان: تيار من اللاهوتيين يدافع عن الكنيسة وتيار معارض وهو ما عاشته جامعة باريس (كلية الفنون كما كانت تسمى).

والذي حصل أن التيار المعارض انتصر عبر صراع مرير مع الكنيسة، هذا الصراع أدى إلى تآكل سلطة رجال الكنيسة وانهيار وصايتهم العلمية. ولم يكن من الممكن حصول هذه الصحوة لولا تتلمذهم على يد المسلمين مما كشف النقاب عن طلاسم خطاب رجال الكنيسة واحتكارهم الحقيقة إلى درجة بيع "صكوك الغفران"، فحلوا محل الإله.

إن ما حصل هو صدمة عرفتها أوربا، بحيث يسود الاعتقاد بانها صدمة أو صراع العقل والإيمان، ولكنها في الواقع هي صراع العقل مع الوهم الكنسي، والصراع تطور إلى ظهور ما يعرف "بالعلمانية" بالرغم من أنها مفهوم خاص بالكنيسة والدولة، إلا أنه تم إلباس الإسلام بها، فتحول من مفهوم وسياق خاص، إلى مفهوم عام يشمل كل الدين، وهذا ما استوردناه عن طريق الترجمة التي استأنفت بعد حملة نابليون بونابرت على مصر 1798م، وهي المرحلة التي مازالت سارية المفعول إلى يوما هذا، بل أصبحت مركزية، هذه المرحلة هي ما سيتم معالجته فيما تبقى ممن هذا المقال سواء تعلق الأمر بملابساتها أو بعض نتائجها على الأقل.

مركزية الترجمة وتشكيل الفكر العربي المعاصر.

تعود جذور بداية الترجمة المعاصرة مباشرة بعد حملة نابليون بونابرت على مصر 1798م. كانت هذه الحملة صدمة لم تستطع مصر استيعابها، ويصور الجبرتي الشأن المصري بوصف دقيق بما يلي: «سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف 1213هـ (1798م)، وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير، وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».[2]

يتضح من خلال نص الجبرتي أن الغزو الفرنسي معناه غامض لدى المصريين وشديد التعقيد ولم تكن هناك قدرة على استيعابه وهو ما يبينه الحشد المكثف للمفردات في وصف الحالة المصرية.

وحملة نابليون لم تكن مغامرة، بل تمت بناء على تقارير كانت ترسل من مصر إلى الدوائر العليا في فرنسا، والتي كان وراءها حضور طلاب اللإفرنج (وهم مستشرقون)، إلى مصر وقراءتهم علم الهندسة على الشيخ الجبرتي الكبير 1159هـ/1746م... وتسارعوا ينقلون كل صغيرة وكبيرة وبينوا الخطر الداعم لليقظة التي يقودها أعلام كبار كالبغدادي والجبرتي الكبير والمرتضى الزبيدي في مصر والشوكاني في اليمن، ويظهر الحقد الدفين والمحترق للفتى الصليبي نابليون حينما كان يختار الطلبة النبيهين المصريين فيضحي بهم عند مشرق كل شمس ويطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة.[3]

وعلى النقيض نجد تكاثر عدد "المستشرقين" توافدوا على مصر في كل زي: «زي طلبة العلم والمعرفة وزي السائح المتجول، وأخطرهم شأنا من لبس منهم زي أهل الإسلام، وجاور في الأزهر ولازم حضور دروس المشايخ الكبار، وصلى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلما لا يرتاب فيه أحد»[4].

(1) Alain De Libera, la philosophie médiévale, op.cit. p 347.

(2) عبدالرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، دار الجيل، 1978، الجزء 2، ص 179.

(3) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 2006، ص ص116-119.

(4) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مرجع سابق، ص 124.

وكان التخفي بهذا الغطاء العلمي والانصهار في مجتمع النخبة المصرية أخطر وأكبر عملية تجسس رسمت معالم تاريخنا الجاري في العلوم الإنسانية، وهي مستمرة بشاكلات لا يحصيها إلا الله، وأدت هذه العملية التجسسية إلى إيجاد غطاء للمشروع الغربي توج بتنصيب محمد علي باشا واليا على مصر ليقوض نفوذ الدولة العثمانية، ويمد الجسور مع الغرب على شاكلة كمال أتاتورك، بحيث أحيط بالقناصل وأوحوا له بفكرة البعثات الطلابية إلى أوربا تحت «تسمية "البعثات العلمية" وفرنسا خاصة، وقصة "مدرسة الألسن" في سنة 1836م (أي بعد دعوته بخمس سنوات) ليست من فكر رفاعة الطهطاوي ولبنات عبقريته، ولكنها ثمرة من "ثمار الاستشراق" ودهاته الذي احتضنوه وربَّوه وغذَّوه ونشَّأوه مدة إقامته في باريس»(1).

إن تأسيس "مدرسة الألسن" وانطلاق حركة الترجمة، تكون هذه الحركة ممثلة لعصر الترجمة الثاني يؤرخ لها بحملة نابليون على مصر 1798م.

وتجاه هذه الحملة «انقسم المثقفون العرب في مصر في العام 1998م إلى معسكرين: المعسكر الأول مع الاحتفال بالمئوية الثانية للحملة الفرنسية –باعتبارها منبها وبداية "لنهضة عربية"... والمعسكر الثاني: ضد الاحتفال باعتبار الحملة حملة استعمارية هدفت إلى احتلال مصر لا إلى إنهاضها».(2)

وبالتفكر في عصر الترجمة الثاني –من نابليون إلى اليوم– يتضح أن الفكر العربي المعاصر والعلوم الإنسانية قد تشكلت عن طريق الترجمة وهي ما يدرس الآن لطلابنا، وكان للتجربة الأندلسية أثر عميق في الوعي التاريخي العربي الإسلامي سلبا وإيجابا، تمثل هذه التجربة حلقة مهمة في سجل تاريخ المسلمين سواء كان ذلك على مستوى عطائها الحضاري المحلي أم على مستوى إشعاعها العالمي الخارجي. وبتعبير آخر التجربة الأندلسية كانت وراء انطلاق حركة العلوم في أوربا، هاته العلوم عادت لنا من بوابة الترجمة بلغة أعجمية مبتورة عن الأصول التي تأسست عليها تلك العلوم. ويمكن تقسيم عصر الترجمة الثاني إلى فترتين حسب جورج طرابيشي: «عصر يبدأ مع مطالع النهضة وينتهي مع نهاية الحرب العالمية الثانية. عصر يبدأ مع بداية الاستقلالات القطرية ومازال مستمرا إلى اليوم.

في العصر الأول كانت مصر عاصمة الترجمة وفي الحقبة الثانية صارت بيروت»(3).

نستشف مما سبق أن القاهرة وبيروت كانتا الموزع المجتهد لما يترجم عندهما على باقي الأقطار العربية، فتم إغراقها بالنظم الغربي، ومنذ ذلك التاريخ أصبح كل شيء مستوردا، حلولا، خطابات، اصطلاحات، وبضاعات.

باختصار أصبحت الاصطلاحات الناتجة عن الترجمة سلعة استهلاكية، من سلع التوظيف وإعادة الإنتاج. وسينضم إلى ترجمات القاهرة وبيروت انخراط مفكري المغرب العربي ومثقفيه في الترجمة فأصبح لدينا ترجمة مشرقية وترجمة مغربية مع بداية السبعينيات.

وتبقى المهمة الكبرى القادمة هي تقويم مائتي عام من الترجمة، بل الأولى «اطلاع القارئ العربي بشكل تاريخي على مئتي عام من الفكر الأوربي الحديث لكي يعرف كيف حل مصطلح الغرب occident محل مصطلح العالم المسيحي (La chrétienté) وهي عملية تاريخية ضخمة لم ندرك أبعادها بالشكل الكافي حتى الآن»(4).

إن قرنين من الترجمة يبينان أن المعركة اليوم تتوقف على نجاحنا أو فشلنا في التعاطي مع هاته الترجمة وبالتالي تحدد مستقبلنا. ولن ننظر إلى علاقتنا مع الغرب على أساس مع أو ضد، ولكن يبقى السؤال: إذا كانت النهضة قد بدأت مند بداية القرن التاسع عشر، والآن مر أزيد من قرنين، فما هو موقعنا وترتيبنا بين الأمم؟ ألم تؤد الترجمة الاتباعية والحرفية إلى اغتيال اللسان

(1) المرجع نفسه، ص 145.
(2) وجيه كوثراني: مسائل في الوعي التاريخي يثيرها استذكار الحملة الفرنسية من الجبرتي إلى شمبليون فالطهطاوي، ندوة منتدى المعارف "أفكار النهضة بين الأمس واليوم من الدعوة لها إلى البحث فيها، تحرير وتقديم وجيه كوثراني، الطبعة الأولى بيروت 2011، ص 70.
(3) جورج طرابيشي: الترجمة والإيديولوجيا المترجمة، مجلة الوحدة عدد مزدوج 62/61 أكتوبر نونبر 1989، ص 31.
(4) هاشم صالح: دور الترجمة في تشكيل الفكر العربي المعاصر، مجلة الوحدة، عدد مزدوج 62/61، 1989، ص 26.

العربي؟ أي تم تعويض اللسان العربي باللغة العربية اليوم وهي في الواقع لسان أعجمي ينطق أو يتلفظ بلفظ عربي. وهل هناك هزيمة أخطر من اغتيال لساننا؟ والدول العربية اليوم تعيش مشكل لغة التدريس وهي تعبير صارخ عن أزمة المؤسسات، وهذا أمر ما كان ليتم لولا ابتعادنا عن مركزية "اقرأ" مركزية القرآن التي عوضناها بمركزية التبعية كانت الترجمة فيها جهاز التنفيذ الذي هو مستمر مع المترجمين الجدد تحت اسم المثاقفة والانفتاح، والمشترك الإنساني، وأصبحنا لا نفكر بالأصالة عن نفسنا، بل بالنيابة عن غيرنا، «فالترجمة بدورها لا تتم بالأصالة بل بالنيابة، بمعنى أننا لا نترجم ما نحن بحاجة إلى ترجمته، وإنما نترجم –في الغالب– ما تفرزه حاجة الغير. فنحن في الترجمة مستهلكون أكثر من منتجين»(1).

والخلاصة ما يلي: بدأت المركزية عند العرب بقبيلة قريش، فعوضت القبيلة بالأمة بناء على "اقرأ" وعوض شيخ القبيلة بالرسول محمد ﷺ.

انتقلت المركزية من القبيلة إلى العقيدة، فأصبحت عقيدة "اقرأ" مركزية في حياة العرب مع الإسلام وعند من دخل من الأقوام في هذا الدين. هذه المركزية تجاوزت الملوك وعروشهم إلى فضاء كوني بعيد عن أي انتماء تاريخي أو عرقي.

لم يحافظ المسلمون على هذه المركزية فكانت أوربا اليقظة هي التي فكهت علوم المسلمين بالأندلس، فانطلقت قوية، كافرة بطاغوت الكنيسة، حرة، وعادت لتدخلنا في شباك تبعيتها عن طريق الترجمة والبعثات الطلابية لننتقل من مركزية القرآن إلى الدوران في فلك مركزية الترجمة بدون ثبات لنا، وأصبحنا نلهث وراء الاستيراد، السلع، وعلم الاجتماع و"الفقه السياسي" والاقتصادي والفلسفي، كلها تدرس لأبنائنا وليس فيها من يتكلم بلسان عربي وإنما أصبح لساننا أعجميا ظاهره عربي.

وانتقلنا من الرؤية الكلية إلى الكلي المنطقي، فهل باستطاعتنا تعويض الكلي المنطقي بـ"اقرأ" باعتبارها رؤية كلية لها منطقها الخاص، بل أكثر من ذلك "اقرأ" أثر مفتوح على الوجود يغطي ما تبقى من عمر البشرية وهو الضامن لسدادها وصوابها.

إن هذا الأثر المفتوح وهذا الرسم المحفوظ (رسم القرءان) باللسان العربي هو بوصلة إبحار البشرية لأن كل الألسنة فشلت في إقامة العلاقة الصحيحة مع الله وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والكون. لقد فشلت لأنها تعرضت إلى التحريف ولم تعد تتكلم لسانا طبيعيا، بل لسانا صناعيا اصطلاحيا، علما أن اللسان الصناعي ليست له القدرة على التعيين السهل والفطري في الوجود، وهذا التعيين السهل ينفرد به اللسان العربي وهو فرصة البشرية الأخيرة، ومن هنا الحاجة ملحة إلى الفتوى التي تخرجنا من هذه الأزمة التي هي حصاد ما استوردناه عن طريق الترجمة. لقد استوردنا الأزمات والغموض والإشكاليات والصراعات بين الثنائيات التي كنا في غنى عنها.

وفي الأخير نقول: قدمت علوم المسلمين إلى أوربا مشعل الحرية وتنكرت لها ومارست علينا حربا لسانية شاركها فيها أبناء جلدتنا وليس هناك خطرا أكبر من بلبلة لساننا واغتيال الناطقين به بالبرمجة الأعجمية لجعل حاجز بين القرآن وأهله ليبقى مهجورا أو على الأقل مبهما لنختم مقالنا بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ الآية 103.

﴿**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ سورة يوسف الآية 21.

المصادر والمراجع:

1. ابن النديم محمد بن إسحاق: الفهرست، دار المعرفة للطباعة، والنشر، بيروت، 1978م/ 1398هـ.
2. أحمد خير العمري: البوصلة القرآنية إبحار مختلف بحثا عن خريطة للنهضة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، 2011.
3. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، الجزء الأول، الطبعة الأولى، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1367هـ/1948م.

(1) جورج طرابيشي: الترجمة والإيديولوجيا المترجمة، مقال سابق، ص 31.

4. إدوارد سعيد: تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، دار الفارس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1996.
5. أحمد جوهري: ما بعد جريمة قابيل، عرض نظري في تاريخ الترجمة والمترجمين الجزء الأول، مكتبة الطالب، وجدة، 2012.
6. طه عبدالرحمن: من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، الطبعة الأولى، 2016.
7. طه عبدالرحمن: فقه الفلسفة –1–الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء الطبعة الثانية، 2000.
8. عبدالرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، دار الجيل، الجزء الثاني، 1978.
9. مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، 1973.
10. محمد ياسين عريبي: الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي –1– المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، الطبعة الأولى، 1991.
11. محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 2006.
12. منتدى المعارف: ندوة: أفكار النهضة من الدعوة إلى البحث فيها، تحرير وتقديم وجيه كوثراني، الطبعة الأولى، بيروت، 2011.
13. مجلة الوحدة: عدد مزدوج 62/61، أكتوبر نونبر 1989.
14. Alain De Libera, Penser au Moyen Age, éd, seuil, Paris, Mai 1991.
15. Alain De Libera, La philosophie Médiévale, quadrige, éd., PUF. Avril 2004.
16. Claude Gouvard, Alain De Libera, Dictionnaire du Moyen Age , quadrige, PUF, 2ème tirage, 2006.
17. CLara FoZ, Traduction –Appropriation "Le cas des traducteurs tolédans de 12 et 13 siècles" TTR (traduction, terminologie, Rédaction/Vol 1, n°2, 1988).
18. J. Legoff, Les intellectuels au Moyen Age, Paris, Senil.
19. M.Salama –carr, La traduction à l'époque Abbasside Paris, Dédier, 1990.
20. R Lemay, "Dans L'Espagne de XII siècle, Les traductions de L'arabe au latin, Annales, 1963, vol 18 n° 4.
21. Vernet Juan, Ce que la culture doit aux arabes d'Espagne, traduit par Gabriel Gros, Paris, Sindibad 1985.